تأويل دلالة ألفاظ الاعتقاد

عند أمحمد بن يوسف أطفيِّش من خلال تفسيره " تيسير التفسير"

د. عبد القادر قصباوي.
قسم : اللغة والأدب العربي كلية: الآداب واللغات
جامعة: محمد بوضياف المسيلة.الجزائر

Résumé/
Ie texet religieux religieux du saint coran l' un des matériaux les plus importants et évacués transportés et établis par des études portant sur diverses foRmes deconnaissances, certains d'entre eux pris du point de ressemblance, où la sécurité de la parole et la force du sens de leur impliquait les aspects de l'étude de l'étude du libelléde l'herméneutique construit logique où l' apparent et témoin sous-mesure presque absente de comprendre l'adresse de cette donnée procédurale sur l' une des personnalités scientifiques algériens ,<<Amhmed ben youssef tvic >> et ce que vecdi son auteur << interprétation allant>>des divers aspects des interprétation des vocalisations de signification dans le textecoranique et indices susceptibles de l'autre dessin sur la pièce de certains textes à tvserbedha om elle parlera avec d' autres les mots en occident.

Les mots clés:

Diligence-texte religion – contexte– interprétion . construction

الملخص: يعد النص الديني "القرآن الكريم" أحد أبرز وأجلى المواد أو القواعد التي أسست عليها دراسات شملت مختلف ضروب المعرفة؛ فمنهم من تناوله من جهة إعجازه حيث سلامة اللفظ وقوام المعنى، ومنهم من انبرى على دراسته من جوانب دلالة ألفاظه حيث الظاهر والباطن وقياس الشاهد على الغائب تقريبا للفهم، نتناول في هذا المعطى الإجرائي إحدى الشخصيات العلمية الجزائرية "أمحمد بن يوسف أطفيش" وما جدى به مؤلَّفه "تيسير التفسير" من مختلف أوجه التأويلات لدلالة الألفاظ في النص القرآني، والقرآن المرجحة لإفادة معنى وإبعاد الآخر، مستعينا في ذلك ببعض النصوص المفسرة للأخرى، ومستأنسا في أحايين أخرى بكلام العرب

الكلمات المفتاحية : دلالة الألفاظ، النص الديني، السياق، التأويل. *التفسير*.

تختلف وتتعدد الدراسات الأدبية واللغوية في العالم العربي من منطقة لأخرى تبعا للموروث المعرفي الذي تتلقفه الأجيال وكذا الحضارات المتعاقبة على هاته المنطقة والسيرورة التاريخية للعصور أمارة ذلك، في ظل هذا الحِراك المعرفي يحفظ التاريخ عطاءات كل أمة من

الأمم، فمنها من نبغت في الجانب الأدبي وبعضها الآخر في النقدي واللغوي من خلال هذا المعطى نلقي الضوء على إحدى الدراسات اللغوية الت يقدَّم صاحبها العديد من المؤلفات في جوانب معرفية مختلفة.

المؤلِّف الذي يستوقفنا" أمحمد بن يوسف أطفيِّش "[1] ابن ولاية غرداية ولد سنة 1238هـ -1821م بحسب ما أورده أحمد جلايلي في كتابه "آراء لغوية لمحمد بن يوسف أطفيِّش"، وأطفيش لقبه العائلي ويعود معناه بحسب اللهجة الأمازيغية الميزابية إلى" أطّف "بمعنى "خُذ " و"أيَّا" ومعناها "تعال " و آشْ"ومعناها "كُلْ "، تتلمذ على العديد من شيوخ منطقته من ضمنهم شقيقه إبراهيم بن يوسف أطفيِّش، توفي محمد في 23 ربيع الثاني 1332 هـ - مارس 1914م. مخلفا إرثا علميا في شتى أضرب المعرفة فله في العروض:إيضاح الدليل إلى علم الخليل، وفي النحو والصرف: شرح لامية الأفعال لابن مالك، قصيدة الغريب نظم "مغني اللبيب " لابن هشام الأنصاري وفي البلاغة: بيان البيان في علم البيان ناهيك عن مؤلفاته في التاريخ والخط العربي .....، أما مؤلفاته الدينية فعديدة ومتنوعة أبرزها:

تيسير التفسيير مؤلّف في تفسير القرآن الكريم وكان معتمدنا عليه نظرا لما تضمنَّه من رؤى بلاغية ولغوية في تفسير آي القرآن الكريم مركزين على ألفاظ الاعتقاد وتوجيهاتها التأويلية فما هي هاته الألفاظ؟ وكيف نظر إلى العملية التأويلية ككل ؟ وهل سار على سَنَن من سبقوه من فرق كلامية أم كان مجددا في رؤاه؟ هذا ما نتكشَّفه في هاته الأسطر .

يهتم علم الدلالة بالمعنى بصفة عامة ويشتغل التأويل على هذا المعطى الدلالي فيعمل على إضاءة ما خفي منه بتحريك آلياته وتفعيلها، تبعا لهذا فإن هاته الآليات تتعدد لتشمل ميادين مختلفة من منطق وأصول وفلسفة لذا جاءت مفاهيم تحديد هذا المصطلح متباينة في بعض أطوارها وإن كانت تقبع خلف مفهوم عام يشملها.

فالألفاظ بعمومها والسياقات على اختلاف أضربها تحمل وجهين إما ظاهر؛ ذو الدلالة البينة المتكشفة وإما مؤول؛ ذو الدلالة المضمرة فنظير الظاهر الباطن "المؤول" وقد تناولت معاجم اللغة هذا الأخير من حيث تحديد مفهومه فهل نهجو سَنَا واحد ؟ أم أن لكل لغوي بصمته ؟ إذا كان هذا الاحتمال واردا فأين تجلت ؟

1- التأويل لغة : الأصل في التأويل لدى الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ) ثلاثي مشدد العين [2] – أوَّل– ويأتي على وزن أَفْعَل وفُعْلى تأنيثا؛ أي الأوَّل والأوْلى، والتأوُّلُ والتأويل تفسير الكلام الذي تختلف معانيه ولا يصح إلا ببيان غير لفظه .

فأصله الثلاثي المضعّف العين وقد قرَن التأويل والتفسير فهما عنده بمنزلة واحدة وإلى هذا المطلب ذهب الرازي (ت 660هـ) في مختاره [3] فهو من الثلاثي (أ و ل) تفسير ما يؤول إليه الشيء وقد أوَّله تأويلا وتأوَّله بمعنى، ومن هذا الباب أيضا الإيالة وهي السياسة يقال آل الأمير رعيته إذا ساسها وأحسن رعايتها، كما يأتي التأويل من الأوْل بسكون الواو؛ بمعنى الرجوع.

أقرّ كل من الخليل والرازي بأسبقية التأويل على التفسير في إشارة منهما إلى المعنى العام الذي يجمعهما وإن كان لكل منهما زاويته الخاصة التي راعى بها المصطلح ففي قول الرازي"التأويل تفسير ما يؤول إليه الشيء" وكأني به يرمز إلى المجمل والذي لا ينقدح إلا بتفصيله وبيانه، وقد أرجع الخليل التأويل إلى تلك المعاني المختلفة والمبهمة فيعمل التفسير على بيانها، ويأتي التأويل لدى الرازي من الرجوع مدللا على وجود معنى أولي خفي وجب العودة إليه .

الهمزة والواو واللام ذاك هو الجذر الأصلي للتأويل [4] ويجمع على فُعَلْ وفُعْلَى من آل يَؤُوْلُ؛ إذا رجع قال يعقوب "أول الحكم إلى أهله " بمعنى أرجعه ورده إليهم وتأتي الإيالة من السياسة باعتبار مرجعية الرعية إلى راعيها وفي هذا قول الأصمعي"آل رعيته إذا أحسن سياستها " وتقول العرب أُلْنَا وإِيْلَ علينا إذا سُسْنَا وسَاسَنَا غيرنا.

وغير بعيد عن هذا يسترسل الزمخشري(ت 538هـ) في معنى التأويل من آل الرعية يؤولها إيالة حسنة وهو حسن الإيالة وهو مُؤْتَال لقومه؛ أي سائس عليهم وأول القرآن وتأوَّله، كما نقول أيضا أول الحكم إلى أهله رده إليهم، ويأتي التأويل لدى الزمخشري على أنه التأمل أيضا حين قال :«تأملته فتأولت فيه الخبر؛ أي توسمته وتحريته»[5] فالتأويل من وجهة لغوية لدى الزمخشري يشتمل على معنيين:

التأويل ← **الرد:** بمعنى الرجوع باللفظ إلى معناه الذي يحتمله.

التأويل ← **التأمل:**إعمال الفكر في النص وتحري المقصدية الأولى فيه.

فهما على هذا الأساس بدلالة واحدة باعتبار الهدف الذي يصبو إليه كل لفظ.

أفاد ابن منظور [6] (ت711هـ) وأجاد لدى طرقه باب التأويل وهو ثلاثي ساكن الوسط (أ وْ ل) ومشدده (أ وَّ ل) ثم أن المعاني التي يحملها لفظ التأويل تعددت لتشمل أبعادا مختلفة وهي:

1- الرجوع : من آل الشيء يؤول أولا ومآلاً إذا رجع .

2- **التدبر والتقدير :** كقولنا أوَّل الكلام وتأوله؛ إذا دبَّره وقدَّره فهو يقتضي إدامة النظر والتريث في ترجيح الأدلة تحريا للصواب.

3 -التفسير : تأوله فسره ومن الشواهد التي دعم بها هذا الموقف من الكتاب قال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [7]؛ أي لم يكن عندهم علم تفسيره وتأويله، ومن السنة سؤال أبو العباس أحمد بن يحي عن التأويل والمعنى والتفسير فأُجِيب أنها بمعان واحدة،

4- الجمع والضم: من أُلتُ الشيء أُؤوِّله إذا جمعته؛ فالتأويل باعتبار النتائج التي يرومها إزالة للإبهام ورفعا للإشكال عن اللفظ أو النص ككل وهو بهذا جمع معان أُشكلت بفلظ واحد لا إشكال فيه.

5- عبارة الرؤيا: وفي قول يوسف لأبيه ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾[8] ما يدلل على ذلك.

وما نستجديه من هذه التعريفات مجتمعة أن الجذر الثلاثي لمصطلح التأويل جاء ساكن العين ومشددها ويأتي من العودة أو الرجوع في إشارة لمعنى أصلي أو جوهري وجب العودة إليه بطريق الدليل المرجح، كما جاء يفيد معان متعددة ، وقد اختلفت نظرة اللغويين حول العلاقة القائمة بين التفسير والتأويل، والاختلاف ذاته نلفيه لدى متناوليه من الوجهة الاصطلاحية.

2: التأويل اصطلاحا

لقي مصطلح التأويل ترحيبا واسعا في أوساط اللغويين وهو ما يفسره وجهات النظر المنمازة فيه، وإن أزمعت في مجملها على أخذه من الأوْل والرجوع مما يستدعي أن هناك معنى خفي مترجح وجب أن يحمل الظاهر عليه فإذا كانت تلك نظرة اللغويين، فكيف سار الأصوليون وأرباب علم الكلام في حصحصة المفهوم أإختلفوا في تحديد مفهومه؟ أم أن هناك عاملا ما قادهم إلى الالتفاف حول مدلول عام ومشترك؟.

اهتم الأصوليون بالتأويل أيما اهتمام ومرجعية ذلك لطابع النص الذي يلتفون حوله وقد كانت لهم معايير متباينة بعض الشيء فمنهم من راعاه من وجهة عامة من غير تفريق لا بين الصحيح والفاسد ولا ما يُتَحرى فيه وما يُتَحرى منه، والبعض الآخر كان أكثر تفصيلا في المسألة ومن ضمن المفاهيم المجملة للتأويل:

ما أورد الغزالي بقوله: « التأويل هو احتمال يعضده دليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي عليه الظاهر ويشبه أن يكون كل تأويل صرف من الحقيقة إلى المجاز» [9] فالاحتمال المعضّد إشارة إلى وجود جملة من المعاني الخفية أولاها ما عضده دليل وقد يصادف هذا الدليل أن يكون واضحا في اللفظ فيكون تأويلا قريبا من الأفهام وقد يكون غامضا فيأتي بعيدا عن مدارك العقول فهو تغليب للدلالة المضمرة على الظاهرة لقيام الدليل المرجّح، تماما مثل الانتقال بالألفاظ من الحقيقة إلى المجاز لضرب من التجوز كقولي مثلا: نازلت أسدا في الوغى تجوزا من باب المشابهة بينهما.

وعن رجحان الدليل وشروطه يقول الزركشي هو: « صرف الكلام عن ظاهره إلى معنى يحتمله، ثم إن حُمِل لدليل فصحيح وحينئذ يصير المرجوح في نفسه راجحا للدليل»[10] فقيام الدليل يحقق هدفين رئيسين ينبغي توفرهما في التأويل :

أولاهما: تحديد ماهية التأويل من حيث الصحة والبطلان.

ثانيهما: بيان المعنى الراجح والذي كان خفيا نظرا لغياب الدليل فلما قام انقدح المعنى الراجح من اللفظ.

نبَّه الزركشي إلى مسألة مهمة [11] فقد يصادف أن يكون للفظ الظاهر معنيان على درجة واحدة من رجحان الدليل فينبغي على المؤول أن يعمل فكره في تغليب أحد الظنين مبتعدا عن تحكيم العادة فلا تغليب إلا تغليب القرائن وإلى الرأي ذاته قال الغزالي فإنما تفرقت الأمم وانزوت بسبب العجلة وتحكيم العرف والتشبث بأذيال العصبية.

بمقاربة التأويل للمشترك والمجمل يورد ابن جزي الكلبي تعريفا مفاده: « هو المحتمل معنيين فأكثر فلا يخلو إما أن يكون أحدهما أرجح من الآخر... فإن كان أحدهما أرجح من الآخر سُمِّي بالنظر إلى الراجح ظاهرا وبالنسبة إلى المرجوح أو الأخفى مؤولا وهو مشتق من التأويل ومعناه إخراج اللفظ عن ظاهره وإن لم يترجح أحد

الاحتمالين على الآخر فهو المجمل» [12] فالمجمل والمشترك والمؤول دوال لدلالات متعددة فإن انقدحت إحدى هاته الدلالات بدليل مرجح صار المعنى المنقَدِح مؤولا.

دلَّل محمد أديب على حصيلة التأويل لدى الأصوليين قائلا:« لقد أخذ التأويل في الاصطلاح عند الأصوليين معنى يتفق مع وجهتهم في استنباط الأحكام والانحراف من معنى إلى معنى آخر عندما يتوفر الدليل على ذلك»[13] يشير أديب لنقطة مهمة في هذا التعريف تتمحور حول الميادين المتعددة التي يشملها التأويل من فقه وأدب ونقد ونحْوٍ وفلسفة وكل يراعيه من وجهته الخاصة به والقرينة قوله"عند الأصوليين" فللنحويين مثلا رؤية قد تختلف عن الأصوليين من منطلق الإجراءات العملية على النصوص النحوية.

وبعد تبيان دلالة لفظة التأويل لغة واصطلاحا نستكشف إجراءات التأويل لدى أطفيِّش إزاء النصوص المتشابهة.

وقف محمد أطفيّش عند الآية السابعة من سورة آل عمران والمتضمنة للنصوص القرآنية من حيث تكشف وخفاء دلالتها حيث المحكم والمتشابه والظاهر والباطن والمؤول والبين الدلالة عندها محللا وغاص في جنباتها متأملا ويمكن أن نستجدي نظرته العامة حيال التأويل فنقول:

- اللفظ المحكم واضح الدلالة بيِّنُها فلا يجوز تأويله بأي حال من الأحوال فآياته أحكمن عن اللبس وعُقلت علته.
- الألفاظ المتشابهة هي المحتملة لمعان مختلفة كالقروء للحيض والأطهار أو تضمَّنت مجازات فلم تعلم علتها.
- مقصدية التأويل والتفسير واحدة، وقد راعى في ذلك الهدف الذي يصَبوان إليه وهو إخراج الدلالة من الغموض إلى الوضوح والإبانة .
- التأويل مسؤولية على عاتق المؤول وقد صرَّحت بذلك الآية ولذا جاءت لفظة الفتنة مقدمة على التأويل.
- الواو في الآية السابعة من سورة آل عمران عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[14] عاطفة فذهب إلى القول بجواز تأويل اللفظ المتشابه للراسخين في العلم مراعيا في ذلك المقصدية وهي عصمة عقول العامة من الوقوع في الذلل إذا ما صادفوا نصًّا متشابها أو غائر الدلالة، وقد ذهب إلى أكثر من ذلك فأوجب تحريك آلية التأويل إذَّاك ما يستفاد من رده على بعض التأويلات

الفاسدة « كتفسير يد الله باليد الحقيقية وهو شرك وتفسيرها باليد بلا كيف وهو فسق ....وكتفسير الاستواء بالتمكن حقيقة وهو شرك، أو بلا كيف وهو فسق»[15]

– للراسخين في العلم حدود للتأويل إذا ما جوبهوا بنص غائر الدلالة وقرائنه بعيدة لا تنقدح لبُعد مأتاها لزم على المؤول أن يؤمن بها هكذا واقفا عند ظاهرها قائلا: ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾[16] هذا ومن الدواعي التي قادت أطفيش إلى القول بالتأويل :

* إقرارا بأن ألفاظ النص القرآني يفسِّر بعضها بعض وأن لا تناقض في آياته وما تبدَّى لنا تناقضا ذلك لنقص فينا لم ندرك دلالته انطلاقا من هذا المعطى فقد نص المولى أن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[17]على الإطلاق ، فحتى يتماشى المتشابه والآية القرآنية وجب تأويله.

* ذهابه إلى عطف واو الراسخين في العلم في ذلك الكثير المدلل على اهتمامه بشريحة هامة في المجتمع وهي العامة، فحفاظا على عقولهم من أن ينالها الشك والريب ومن ثم الخروج بتأويل مضلل وجب التأويل .

* اعتبر عدول الراسخين في العلم عن التأويل تقصير وزيادة للمرتاب في ارتيابه وتقوية للشبهة يقول ما نصه:«التأويل تأييد لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [18] وعملٌ به، وفي تركه مع إمكانه تقصير في الدين وإبقاء للمرتاب على ارتيابه وتقوية وإعانة للشبهة»[19]

من خلال هذا الطرح تتمعلم لنا وجهة أطفيّش ونظرته للنص المتشابه فأعمل فيها التأويل حرصا على أفهام العامة من الناس حينما يصادفون متشابها فيجدون في هاته التأويلات المعطى المناسب لعقولهم ومن ثم تثبيتهم على الحق؛ وبذا يمكننا الوقوف على الألفاظ التي تضمنت توجيها دلاليا حتى نتمكن في الأخير من الوصول إلى المنهج الذي سلكه أطفيش إزاء النص المتشابه وكذا القرائن التي وجه بها التأويل.

لفظة الاستواء:

جاء في لسان العرب لابن منظور في باب "سوا" أن الاستواء يعني التماثل فهو مأخوذ من استوى الشيء وتساويا تماثلا، ويلحق بواو المعية فنقول استوى الماء والخشبة، كما أشار الليث إلى أن الاستواء فعل لازم من

قولك سويته فاستوى[20]. وذهب الكفوي [21] إلى أن اللفظ يراد ببه معنى الاعتدال والاستقامة وإن عدي بها حُمِل على الاستواء وهو مختص بالأجسام.

ومن ضمن الآيات الدالة على الاستواء قوله تعالى﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَار ...﴾ [22] من الدلالات الخفية التي تتضمنها لفظة الاستواء في هذا المقام هي الارتفاع والعظمة فمعناها الظاهر هو الجلوس على مرتفع، فالتسليم بهذا المعطى يوقع في التجسيم وهنا تنقدح قرينة التأويل، يورد لذلك أن الفعل "استوى" متعد بحرف الجر "إلى " فمعناه يعدل عن استقام واعتدل متضمنة صورة بيانية وهي الكناية وأريد بها لازم المعنى فجاء تأويل الاستواء بمعنى « الملك والتصرف ولم يرد بها مع ذلك ظاهر اللفظ» [23] والكنايَة خلاف الصريح وهو ما استتر معناه والمراد بلازم المعنى تماما مثل قولنا زيد طويل النجاد وهو استعمال حقيقي لكن المراد منه طويل القامة، إذ إن طولها لازم لطول النجاد فعبر عن الملزوم "النجاد" باللازم الذي هو القامة، فأريد بالاستواء عليه ملكه والتصرف فيه.

يعود أطفيّش لتبيان المسألة من وجهة لغوية موضحا دلالة "ثم" ويقول أنها أتت على الفور والترتيب لا على التراخي فتأولت الجسم العظيم[24] . فلم يقف أطفيّش عند تأويل واحد للفظة فجاءت تفيد الملك والتدبير والتصرف في الشيء وتارة أخرى أفادت الجسم العظيم وتعددت القرائن المرجحة لما يذهب إليه من كناية وترتيب على الفور في "ثم" وهو ما أكده محمد جلايلي لما وقف على المعاني المستفادة من لفظة استوى عند أطفيّش يقول في هذا الصدد: « فأطفيّش كان مصرحا في تأويله للفعل استوى إذ كان منطويا تحت المتشابه وذلك انطلاقا من مبدإ التنزيه ولكنه يتخذ أكثر من رأي في كلمة العرش فيؤولها بالملك تارة ويجمع بين التأويل والظاهر فيكون الملك والجسم العظيم معا...»[25] .

لفظةالإدراك:

جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس [26] في "فصل الدال" الدال والراء والكاف أصل واحد وهو لحوق الشيء بالشيء ووصوله إليه، ومن معانيه اللحوق تِباعا فقولنا تدارك القوم : لحق آخرهم أولهم، و أدركتُه بصري؛ إذا رأيته فمن معاني الإدراك : البصر والنظر والرؤية قال تعالى : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [27] .

أورد أطفيّش معانٍ تفيدها اللفظة في جوار نص الآية نجملها في:

- **الحلول:** ويقصد به الحيِّز المكاني الذي يشغله الشيء المدرك.
- **التحيز:** فإذا وعيت شيئا في ذهنك تحيَّز مكانه في القلب .
- **الوصف:** فلا بد أن يكون المدَرك يحمل أوصافاً من لون وغلظ ورقة.

هاته المعاني مجتمعة تفيد تجسيم المرئي وهو ما يتعارض ومبدأ أطفيش القائل باستحالة رؤية الله دنيا أو آخرة ولذا أبقى الآية على ظاهرها من غير تأويل ودافع عن رأيه بحجج مختلفة وقرآئن متعددة نوردها في :

الدلالة المعجمية:

يقول في هذا الصدد:«لا يختص الإدراك بالكُنْه بل من أدرك طرف شيء فقد أدركه ولو لم يدركه كله» [28] والمراد بالكنه بلوغ غاية الشيء ونهايته فغاية الإدراك أن تحيط به إحاطة كلية أو جزئية فسواء أبصرنا الشيء بجميع تفاصيله وأدركناه بحيثياته أو أبصرنا جزء منه فإن فائدة الإدراك حصلت على حد تعبيره.

الدلالة السياقية:إن المتأمل في سياق الآية ولدى وقوفه على دلالتها العامة تتكشف له استحالة الرؤية البصرية وهو المستفاد من قوله "اللطيف الخبير" ؛فاللطف الدقة الموجبة لخفاء الإدراك أو هو الخفي المدرك ويعود على لفظة "لا تدركه الأبصار"، والخبير فالخبرة تعني العلم بما دق وخفي وهو عائد على" وهو يدرك الأبصار".

الدلالة النحوية: الألف واللام أو "ال" التعريف دالة على العموم والإطلاق؛ فالإنسان اسم لجميع الأجناس، والفرس والشجر اسم لجميع الأنواع فاللفظ يبقى عاماً ما لم ترد قرينة تخصصه وإلى هذا الصنيع أشار أبو حامد الغزالي قائلا: «كالرجل فهو اسم جنس قد تطلق وتريد به رجلا معيناً عرَّفه المخاطب من قَبَل، فتقول أقبل الرجل الذي جاءني من قبل فإذا لم تكن القرينة كان اسم الرجل اسماً كليا يشترك في الاندراج تحته كل شخص من الرجال»[29] وقد ترد ألفاظا عارية من القرينة – الـ – التعريف إلا أنها تفيد التخصيص ، لاعتبار واحد وهو أن هاته الألفاظ لا نظير لها مثل قولنا إله وسماء وأرض و وشمس... فما يدخل في نطاق هذه الألفاظ سواء أدرجت القرينة أم لم تدرج فإنها تقترن بمعانيها رأسا.

تماشيا وسنن العرب في كلامها عمد أطفيّش إلى القول باستحالة الرؤيا على الإطلاق سواء للمؤمنين أو الكفار فـ "الـ" للاستغراق باقية على العموم الشمولي بعد النفي بـ "لا" شاملة للمؤمنين والكفار[30].

رأينا كيف نزل أطفيّش عند لفظة الإدراك في الآية وقال باستحالة الرؤيا انطلاقا من المعنى المعجمي إلى السياقي ثم النحوي فخلاصة القول « في موقف أطفيّش .... هو تنوع ألوان الاستدلال انطلاقا من المعنى المعجمي للفظ الإدراك ثم السياقي وكذا اعتماده على القرائن الصرفية والنحوية وقرينة الجوار في النص القرآني»[31] .

هذا وإذا سلمنا بلفظة أدرك المنافية للرؤية كيف كان موقفه من الآيات الدالة على الرؤية؟ مثل لفظة النظر.

لفظة "النظر ": فهي مشترك لفظي ودلالتها:

النظر
- تقليب الحدقة الصحيحة جهة المرئي طلبا للرؤية.
- الرحمة والشفقة والتعطف.
- إعمال الفِكر والتأمل كنظري أو نظرك في المسألة.
- الانتظار كقولي أنا ناظر ما يصنع بي؛ أي منتظر.

وقد ردَّ ما ذهبت إليه الأشعرية[32] من قولهم برؤية الله في الآخرة وفنَّدهم فيما رأوه من أدلة عقلية ونقلية ولا بأس أن نعرِّج على رؤيتهم في المسألة ومن البراهين التي اعتمدوها:

البراهين النقلية: إن النظر إذا كان بمعنى الانتظار عند العرب وجب أن لا يقرن بـ "إلى" كما هو وارد في آية القيامة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[33] وهذا ما يؤكده قول امرئ القيس[34]:

فَإِنَّكُمَا إِنْ تَنْظُرَانِيْ سَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ تَنْفَعْنِيْ لَدَى أُمِّ جُنْدُبِ

فلما قصد الانتظار لم يسبق اللفظة بـ"إلى" تماما كما فعل مع بلقيس قال تعالى:﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [35] فلما أرادت الانتظار لم تجر اللفظ، ولما عنى المولى تبارك وتعالى رؤيته يوم القيامة قرن اللفظة بـ"إلى" كما جاء في لسان العرب[36].

وقف الأشعري عند بعض الآيات وحرَّك فيها آلية التأويل مما من شأنه أن يعضِّد به رأيه في قوله بالرؤية قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[37] وقوله أيضا ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[38] فلفظ الزيادة في الآية الأولى جاء

في سياق الحديث عن عباده الصالحين، وعلى نفس السَنَن جاء سياق الآية الثانية يحكي عن الجنة وما أُعد فيها لأهلها، بناء على الجو العام للخطاب تؤولت الزيادة في الآيتين بمعنى الرؤية وإلا كيف تكون لُقْياه سبحانه وتعالى لدى قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ [39] فإذا لقيه المؤمنون رأوه .

البراهين العقلية: من الحجج طلب موسى من ربه في سورة الأعراف أن يراه قائلا:﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [40] فالرؤية بالأبصار أمر مشروع وإن سؤال موسى لربه لم يكن مستحيلا، فإن كانت الرؤية مستحيلة على ربنا كما زعمت المعتزلة ولم يعلم موسى وهم قد علموا ذلك «لكانوا على قولهم أعلم من موسى وهذا مما لا يدعيه مسلم»[41] . ثم إن تجلّي المولى تبارك وتعالى إلى الجبل ألا يقر بجواز الرؤية مبدئيا وإن لم تحدث فعليا ولهذا السبب عُلقت على استقرار الجبل، علاوة على أن اقتران رؤيته بما هو ممكن حدوثه – استقرار الجبل – لدلالة شاهدة على إمكانية الرؤيا، فلو كانت غير ممكنة لربطها بما هو مستحيل عملا بلسان العرب؛ فتماضر بنْتُ عمر بن الشريد السلمية لما أرادت تبعيد صلحها لقاتلي أخيها قرنته بمستحيل [42] :

وَلنْ أُسَالِمَ قَوْمَاً كُنْتُ حَرْبَهُمُ حَتَى تَعُوْدَ بَيَاضَاً جُؤْنَةَ القَارِ

ثم إن اقتران النظر بالوجه ألا يشير إلى إيراده العينين اللتين فيه تماما كقوله لنبيه ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾[43] والمراد من تقلب الوجه تقلب العينين؛ إذ تتم الرؤية بهما. هذا وقد جاء مؤلف الإبانة متضمنا للعديد من الشواهد المرجحة للرؤية الحسية آخرة أشرنا إلى بعضها وتفادينا معظمها مخافة الإطناب.

لم يعر أطفيش اهتماما لرؤية الأشعرية لدى وقوفهم على آية النظر في سورة القيامة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[44] وحرّك فيها التأويل مرشدا إلى توجيه الآية نحويا وتقدير ما يقدم وما يؤخر فوجوه: مبتدأ ، ويوميذ: قدمت لتؤدي غرضا بلاغيا وهو الاهتمام بذلك اليوم، وناضرة: خبر ثان كما تعدت بحرف الجرّ "إلى" واستدل لذلك بقولنا لفلان مثلا: أنظر إلى الله ثم أنظر إليك؛ فتقدير الكلام أنتظر فضل الله ثم فضلك، فالمقصود بالنظر الانتظار ومراده النِعم ؛ إذ إن تقدير الكلام ناظرة نِعم ربها[45].

ويبدو أن أطفيش سلك ما رأته المعتزلة تدليلا في هاته الآية فالنظر عندهم لا يفيد الرؤيا ولاهي أحد محتملاته، ولذا جاء تأويلها بمعنى الانتظار، وقد ذهب أبوعلي الجبائي إلى إن "إلى" في قوله"إلى ربها ناظرة" اسم وليست حرف جر؛ بمعنى وجوه ناضرة لنعم ربها منتظرة[46].

لفظة ساق: على سنن السلف وبالخصوص ابن عباس ترحمان القرآن، الذي كان يفسر ما غار عليهم فهمه برده إلى كلام العرب وإلى النهج ذاته دأب أطفيِّش فلدى وقوفه على الآية القرآنية عمد إلى كلام العرب ووقف على الاستعمالات المختلفة للفظة، وقبل أن نعرج على رأيه نستبصرها معجما فـالسين والواو والقاف أصل واحد وتجمع على جمعين [47]:

1 –فإذا أخذت مما يساق مثلا من الدواب مثل قولنا: ساق للمرأة مهرها؛ ومنه جاء اشتقاق السوق؛ لما يساق إليها من كل شيء فيجمع على أسواق.
2 –وإن قصد بها ساق الإنسان؛ فهو ينساق عليها أثناء المشي فيجمع على "سُوق" ومربط الفرس هذا الأخير.

والمراد بها لدى ابن منظور شدة الأمر كقولهم قامت الحرب على ساق، وتطلق على الأمر الشديد؛ ذلك لأن الإنسان إذا داهمته شدة شمَّر لها على ساقيه ثم قيل للأمر الشديد ساق[48].

من ضمن ما استشهد به أطفيِّش ما أنشده أبو عبيدة لقيس بن زهير[49] :

فَإِنْ شَمَّرَتْ لَكَ عَنْ سَاقِهَا فويهاً حُذَيف وَلاَ تَسْأَمِ

وقد كثر مثل هذا في كلام العرب حتى صار كالمثل للأمر العظيم الشديد، ويبدو أن المعنى المعجمي للفظة ساق والتي تجمع على "سُوق" يتماشى وما أريد به في الأبيات. وعلى هذا الأساس وتبعاً للسياقات المختلفة تأولت اللفظة في الآية بالأمر الشديد أو الزمن الأشد يوم القيامة.

لفظة أتى: وردت لفظة الإتيان منسوبة لله وهو ما لا يتماشى ومبدأ نفي"التجسيم" واللفظة في قوله تعالى:﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [50] عمد السياق وتَخِذه متكأه موجها قرينة الغمام والملائكة فأول الإتيان بالأمر والبأس الذي من معانيه الغضب، فمن المعلوم أن الغمام يحمل معه بشائر الخير لكن الحق استعمل الغمام ليكون قرينة للغضب ففاجأهم الشر من حيث ظنو الخير فالإيهام الأول حاصل في الغمام وزاده إيهاما لما أخَّر الملائكة فهم الذين يجري على أيديهم الغضب وجاء

الفعل على صيغة الماضي المبني للمجهول دلالة على تحققه وتأكيدا لهم فمن شأن « الغمام أن يكون ماء فإذا ما جاء فيه العذاب كان أشد عليهم إذ جاءهم الشر من حيث يظنون الخير .... والملائكة لجريان العذاب على أيديهم أخَّر ذكرهم تتميما للإبهام»[51] فالسياق داع قوي ساقه للقول بالأمر والبأس في تأويل الإتيان.

لفظة العين: في قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [52] وظَّف أطفيِّش مقام الحال وبلاغة الخطاب للوصول لمقصدية اللفظة:

مقام الحال: نظرا لأن قوم نوح كانوا يتربصون به لما همَّ بصنع السفينة فقد تعهد الله بحفظه والدال على ذلك الأمر الوارد في الآية اصنع فهو أمر للوجوب على ظاهره وحفظه لنفسه ولمن آمن معه على حد تعبير أطفيّش .

بلاغة الخطاب: تتجلى في قطبين وهي المبالغة وذلك باستعمال جمع الأعين بدل عين واحدة والقطب الثاني متمثل في التشبيه التمثيلي الوارد فيه تشبيه صورة بصورة فشبه «حفظه ومراقبته بحراسة الحراس بإمعان العيون وكمال التيقظ بحيث لا يظفر قاصده ولا يرام طالبه لكمال بأسه عن تناول لكثرة حراسه»[53].

بين لفظتي القدم والرجل: في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ [54] وإلى هذا يعضد الآية بحديث آخر رويت فيه أرجل بدل قدم وهي في هذا المقام منسوبة إلى الله عزّ وجل تنزه عن ذلك، فتنزيهه عن مضاهاته لخلقه يفرض إعمال التأويل في هذا المقام وقد عمد أطفيِّش إلى الدلالة المعجمية لـ :

لفظة القَدَم: راعى المقام العام وهو طلب الزيادة أو ما يقدم لها؛ فالقدم على حد تعبيره عبارة عما يقدم إليها آخرا ويلقى فيها ما يلقى حتى يلقى فيها آخر ما يلقى فليس المراد من القدم في الحديث ذاتها وإنما المعنى أن يلقى إليها آخر ما تكف عنه عن الزيادة ، وما يعضد هذا قوله تعالى: ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [55] وإلى هذا المعنى ذهبب عض مفسري القرآن الكريم مثل الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير؛ فهي اسم لما تقدم وسلف، فيكون في الخير والفضل وفي ضده[56]

لفظة الرِجْل: المقصود بالرِجل كسراً الجماعة وليس ذات الرجل، فرِجل جراد، جماعة جراد وبعد تبيانه لدلالة القدم والرجل منفردة يعود إلى الجمع بينها لاستعمالهما مجازا لا حقيقة فيقال وضع قدمه أو رجله على الشيء

دلالة على تمكنه منه وسيطرته عليه «وضع القدم أو الرجل عبارة عن كفها عن طلب الزيادة وإبطاله تقول: وضعته تحت قدمي تريد إبطاله»[57]

يتبدى أطفيّش منهجيا في طرحه فأول ما ابتدأ به الدلالة المعجمية للفظة القدم معرجا على دلالة الرجل مركزا في الآن ذاته على المقام العام للنص ككل، واقفا في الأخير على تأويل اللفظة و المذهب الذي سلكه هو الغالب الأعم الذي نحاه لدى وقوفه على آي النص القرآني فأحيانا يعمد إلى الجانب البلاغي وأحيانا إلى النحوي والصوتي بحسب كل نص وإطاره العام الذي يتمحور فيه.

خلاصة: وفي الأخير نخلص لأبرز النقاط التي رأيناها مهمة حيال هذه الورقة تجلت في:

أولا: وجَّه ألفاظ الاعتقاد توجيها لغويا دلاليا مراعيا في ذلك الجوار أحيانا كما رأينا مع لفظة الإدراك، كما راعى من وجهة أخرى دلالة اللفظة من حيث تعدد المعنى كما مر معنا مع لفظة النظر.

ثانيا: سار في غالبه الأعم على ما رأته الفرق الكلامية التي سبقته واقفا إلى جنب المعتزله في بعض رؤاه وآية سورة القيامة التي أفادت الرؤيا تعضد ما ذهبنا إليه.

ثالثا: يمتاز فكر أطفيّش بالنظرة الدقيقة لدى وقوفه على معاني الألفاظ فيقلِّب اللفظة على أوجه عدة مستبصراً المعاني التي تؤديها من خلال السياقات المختلفة التي ترد فيها واقفا عند استعمالاتها لدى العرب ثم توجيهاتها النحوية ووجهتها البلاغية ليقرَّ في الأخير بدلالتها.

أخيرا: تضمن مؤلَّف "تيسير التفسير" العديد من الجوانب المعرفية الهامة الحَرَية بالمدارسة وإعداد كتب وبحوث متخصصة في مجالات أدبية وبلاغية ولغوية والعمل على مقاربتها بالدرس اللغوي الحديث.

الهوامـــــش:

1 ينظر آراء لغوية لمحمد بن يوسف أطفيّش ، أحمد جلايلي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 2009، ص 23-24-25-26.
2 ينظر كتاب العين الخليل بن أحمد الفراهيدي، ترتيب ومراجعة داود سلوم وداود سلمان العنبكي وإنعام داود سلوم ، مكتبة لبنان ناشرون بيروت لبنان ، ط 01، 2004م،، ص 30.
3 مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، دار القلم بيروت لبنان، ص 33.

4 -ينظر معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس، تح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت لبنان، ص 164.

5 -أساس البلاغة ، جار الله الزمخشري، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت لبنان ، ط 01 1996م، ص 12.

6 -لسان اللسان تهذيب لسان العرب، ابن منظور، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط 01، 1413هـ . 1993م 50/1 .

7 -سورة يونس الآية39.

8 -سورة يوسف، الآية 100.

9 -المستصفى من علم الأصول، أبو حامد الغزالي، تحقيق وتعليق سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، ط01، 42/2.

10 - البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين بن محمد بن عبد الله الزركشي، تحرير عمر سليمان الأشقر مراجعة عبد الستار أبو غدة ومحمد سليمان الأشقر، دار الصفوة الغردقة الكويت، ط02 1413هـ - 1992م ، 437/3.

11 - ينظر البحر المحيط، الزركشي 438/3 ، وقد رأى الغزالي أن على المؤول أن يرفع شعار الاجتهاد في كل تأويل قصده سواء أكان قريب أم بعيد ينظر المستصفى من علم الأصول، الغزالي 2/ 42.

12 - تقريب الوصول إلى علم الأصول، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، دراسة وتحقيق محمد علي فركوس، دار التراث الإسلامي، حيدرة الجزائر، ط01 1415هـ 1995م ص 85.

13 - النصوص في الفقه الإسلامي، محمد أديب صالح، المكتب الاسلامي، ط03، 366/1.

14 - سورة آل عمران، الآية07.

15 - تيسير التفسير، امحمد بن يوسف أطفيّش، تح إبراهيم بن محمد طلاي، المطبعة العربية، غرداية الجزائر، 1419هـ، ، 1998 ،2 /243.

16 - سورة آل عمران، الاية 07.

17 - سورة الشورى، الآية11.

18 - سورة الشورى، الآية11.

19 - تيسر التفسير، أطفيش، 201/15.

20 - لسان العرب اين منظور، دار صادر بيروت لبنان، ط01، 408/14 .

21 - الكليات – معجم في المصطلحات والفروق اللغوية– أبو البقاء أيوب بن موسى، تح عدنان درويش / محمد المصري، مؤسسة الرسالة،بيروت لبنان، ط02، 1432هـ، 2011م ص 90.

22 - سورة يونس، الآية 03.
23 - تيسر التفسير، أمحمد بن يوسف أطفيش ، 75/5.
24 - ينظر المصدر نفسه،76/5.
25 - آراء لغوية لمحمد بن يوسف أطفيّيش ،أحمد جلايلي ص 30.
26 - مقاييس اللغة، ابن فارس، تح عبد السلام محمد هارون، دار الفكر 1399هـ، 1979م، 269/2.
27 - سورة الأنعام، الآية 103.
28 - تيسير التيسير، أمحمد بن يوسف أطفيَّش،409/4.
29 - معيار العلم في فن المنطق،أبو حامد الغزالي، تعليق وشرح علي بو ملجم، مكتبة الهلال بيروت لبنان، ط 01، 1993م، ص 46.
30 - تيسير التفسير، محمد بن يوسف أطفيّش، 409/4 .
31 - آراء لغوية لمحمد بن يوسف أطفيش، أحمد جلايلي، ص 207
32 - الفرق بين الأشعرية والأشاعرة وهو أن الأشعرية: ذلك المنهج العقدي الذي أسسه الأشعري توخيا للوسطية بين الرافضين لإعمال العقل من الجامدين وبين القائلين بأفضلية العقل على النص من المغالين، وإن كان الذين أتوا بعده – الأشاعرة– سلكوا المنهج ذاته في إطاره العام من التوفيق بين العقل والنقل، إلا أنهم كانوا أكثر جرأة في رؤاهم التأويلية ينظر الفرق الإسلامية بين القديم والحديث، عبد الرحمن الأبييري، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء ، دار الحديث القاهرة 1428هـ-2007م، ص 102،103...
33 - سورة القيامة، الآية 23.
34 - ديوان امرؤ القيس، دار بيروت للطباعة والنشر، 1392هـ - 1972م، ص 178.
35 - سورة النمل، الآية35.
36 - الإبانة عن أصول الديانة، أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري، دار ابن حزم بيروت لبنان، ط 01 ، 1424هـ - 2003م ،ص 21.
37 - سورة يونس، الآية 26.
38 - سورة ق، الآية 35.
39 - سورة الأحزاب، الآية 44.
40 - سورة الأعراف، الآية 143.
41 - ينظر المرجع السابق، ص 23.

42 - ينظر ديوان الخنساء، تح أبو العباس ثعلب، تقديم فايز محمد، دار الكتاب العربي، ط 03، 1419هـ - 1998م، ص 128.

43 - سورة البقرة، الآية 144.

44 - سورة القيامة، الآية 23.

45 - ينظر تيسير التفسير ، أمحمد بن يوسف أطفيش،426/15-427.

46 - ينظر في علم الكلام – دراسة فلسفية في آراء الفرق الإسلامية لأصول الدين * المعتزلة *- أحمد محمود صبحي، مؤسسة الثقافة الجامعية، الأسكندرية، مصر ، ص 129.

47 - معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، تح عبد السلام محمد هارون دار الفكر بيروت لبنان، ط1399هـ - 1979م،117/3.

48 - ينظر لسان العرب، ابن منظور، 166/10.

49 - لباب التأويل في معاني التنزيل،علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي،دار الفكر - بيروت / لبنان -1399 هـ /1979 م ،163/7. وينظر أيضا: الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، تح محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي – القاهرة ، ط02، 1417 هـ - 1997 م،166/3.

50 - سورة البقرة، الآية210.

51 - تيسير التفسير، أمحمد بن يوسف أطفيش، 13/2.

52 - سورة هود، الآية 36.

53 - ينظر تيسير التفسير، أمحمد بن يوسف أطفيش ،387/6.

54 - سورة ق، الآية 30.

55 - سورة يونس، الآية 02.

56 - ينظر التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان ،ط01، 1420هـ/2000م، 12/11.

57 - تيسير التفسير ، أمحمد بن يوسف أطفيش، 36/14.